

أثر المياه في التطور الاقتصادي للمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط - قراءة تاريخية من خلال كتب الرحالة والجغرافيين - .

The impact of water on the economic development of Maghreb Central during the Middle Ages - a historical reading through the books of travelers and geographers.

بشير مبارك¹ *

¹معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية، المركز الجامعي عبد الله مرسلّي تيبازة، الجزائر

مخبر الدراسات التاريخية والأثرية – تيبازة-

mebarek.bachir@cu-tipaza.dz

تاريخ الاستلام: 2022/11/17، تاريخ القبول: 2024/10/28، تاريخ النشر: 2024/10/30

ملخص:

أتهدف الورقة البحثية هذه للحديث عن الأثر الحضاري للمياه بالمغرب الأوسط، إذ يعتبر هذا الموضوع من أهم المواضيع الجديرة بالبحث والدراسة قديما وحديثا، فالماء منذ القدم كان له دورا رائدا ولا يزال في قيام المدن والتجمعات الحضرية، والأمثلة حول ذلك كثيرة يصعب حصرها، فعلى سبيل المثال لا الحصر قامت حضارة بلاد الرافدين على ضفاف نهري دجلة وفرات، في حين قامت الحضارة الفرعونية بمصر على وادي النيل، أما المغرب الأوسط فقد قامت العديد من مدنه حول الأودية و الأنهار والبحار ومن ذلك مدينة الشلف، المسيلة، الشفة، برشك

من خلال هذه الورقة البحثية سأحاول تحديد الأثر الحضاري للمياه بمغربنا الأوسط خلال العصر الوسيط مركزا على دورها في النشاط الزراعي، الصناعي والتجاري .

الكلمات المفتاحية: المياه؛ المغرب الأوسط؛ الزراعة؛ الصناعة؛ التجارة.

Abstract:

This research paper aims to talk about the cultural impact of water in the Maghreb Central, as this topic is considered one of the most important topics worthy of research and study, ancient and modern. Without limitation, the civilization of Mesopotamia was

*بشير مبارك

established on the banks of the Tigris and Euphrates rivers, while the Pharaonic civilization in Egypt was established on the Nile Valley. As for the Maghreb Central, many of its cities were built around valleys, rivers and seas, including the city of Chlef, M'sila, Shafah, Breshk ...

Through this research paper, I will try to determine the cultural impact of water in our Maghreb central during the Middle Ages, focusing on its role in agricultural, industrial and commercial activity.

Keywords: water; Maghreb central; Agriculture; Industry; Trading.

مقدمة :

يعتبر موضوع المياه من المواضيع الجديدة بالبحث والدراسة إذ لاقى اهتماما كبيرا من قبل الباحثين والدارسين قديما وحديثا، فالمياه لها أثر كبير في قيام الدول والحضارات عبر التاريخ فلو ألقينا نظرة خاطفة حول تأسيس المدن عبر التاريخ لوجدنا أن جلها وفي مختلف مناطق المعمورة قد قامت بالقرب من مصادر المياه ولعل أبرز مثال على ذلك قيام حضارتان عريقتان بالقرب من الأنهار "حضارة بلاد الرافدين على ضفتي نهري الدجلة والفرات، والحضارة المصرية الفرعونية على ضفاف وادي النيل" والأمثلة حول ذلك كثيرة لا يتسع المجال لذكرها .

أما إذ ما تحدثنا عن قيام مدن المغرب الأوسط لوجدنا أن العديد من مدنه قد قامت بالقرب من مصادر المياه سواء أنهار أو عيون، وذلك ما ذكرته لنا كتب أدب الرحلة والجغرافيا.

إن مصادر المياه بالمغرب الأوسط كان لها أثر حضاري على مدن المغرب الأوسط إذ مسّت الجانب الاقتصادي، فساهمت في وفرة الإنتاج الزراعي الذي سجل فائضا عن الحاجة، كما وفّر المادة الخام للصناعة، ومن ثم نشطت التجارة بشقيها الداخلي والخارجي .

علما أن الدراسات الجزئية حول هذا الموضوع تبقى بعيدة نوعا ما مقارنة باهتمامات باحثي دولا أخرى وبالأخص الجارتين المغرب الأقصى وتونس .

اعتبارا لذلك جاء موضوع ورقي البحثية هذه موسوما بـ: "أثر المياه في الرقي الاقتصادي للمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط- قراءة تاريخية من خلال كتب الرحالة والجغرافيين".

من خلال هذه الورقة البحثية سأحاول تتبع مصادر المياه ببعض مدن المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط وبالأخص مدن مليانة، المسيلة، إفكان، متيجة، مسيلة، تيمرت...، ثم أوضح تأثيرها في وفرة الإنتاج الزراعي، تلك الوفرة انعكست إيجابا على الصناعة وبالأخص الصناعة النسيجية، وفي الأخير سأوضح انعكاس وفرة الإنتاج الزراعي والصناعي على التجارة الداخلية والخارجية البرية والبحرية .

تتمحور الإشكالية الرئيسة التي تطرحها الورقة البحثية حول الأثر الحضاري للماء بالمغرب الأوسط خلال

العصر الوسيط ، وللإجابة عليها يترتب علي الإجابة عن تساؤلات فرعية منها:

- فيما تمثلت مصادر المياه بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط ؟

- كيف ساهم الماء في الرقي الحضاري للمغرب الأوسط ؟

أسئلة تطرح نفسها في هذه الورقة البحثية، للإجابة عنها كان لا بد من استخدام منهج تاريخي يجمع بين الوصف، والتحليل والاستنتاج بعد الرجوع إلى المادة العلمية المنشورة في مختلف المصادر والمراجع التي تناولت الموضوع أو طرقته في أحد جوانب.

1- مصادر المياه بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط:

يعتبر الماء ضروري في قيام المدن باعتباره شرط أساسي إذ لا يمكن إقامة أي تجمع بشري دون توفر المياه فجّل المدن الإسلامية في العالم الإسلامي بما فيها مدن المغرب الأوسط قامت قرب الأنهار والعيون والبحار علما أن قلة المياه لم تمنع من قيام المدن إذ تم جلب المياه إليها عن طريق القنوات .

لقد تنوعت مصادر المياه بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، يتضح ذلك من خلال ما ورد في كتب الجغرافيا والرحلات، ومن مصادرها في بعض مدن محور البحث " مليانة، المتيجة، المسيلة ".

أ- مصادر المياه بمدينة مليانة:

تشير كتب الجغرافيا وأدب الرحلة أن المدن السابقة قد توفرت على مصادر مياه هائلة، فمثلا توفرت مدينة مليانة البلدة الخصبة (العبدري، 2007، ص - ص 46-48) على مصادر عدة للمياه منها في مقدمتها الآبار حسب ما ذكر ياقوت الحموي: "... وجدت بها آبار وأنهار تطحن عليها الأرحاء..." (الحموي، د ت، ص 69) ، كما استفادت المدينة من الأنهار منها واد الشلف الذي ورد عند ابن حوقل بنهر الشلف: "... كما كان لها حظ من نهر شلف..." (ابن حوقل، د ت، ص 89) ، وغير مستبعد اعتمادها على العيون المحيطة بوادي زكار حسب الحسن الوزان في وصف إفريقية: " أما جبل زكار المحيط بها فهو مليء بالعيون..." (الوزان، 1983، ص 34-35).

ب- مصادر المياه بإقليم متيجة:

مدينة متيجة حسب مصادر الجغرافيا بلد في أواخر إفريقية من أعمال بني حماد، قال البكري: الطريق من أشير إلى جزائر بني مزغناي ومن أشير إلى المدينة وهي بلد جليل قديم (بن قرية، 20047، ص 255) من أبرز مواردها المائية النهر الكبير الذي تحيط به الأرحاء والبساتين قرب مدينة فرزونة ،... ومنها إلى فرزونة، وهي مدينة على نهر كبير عليه الأرحاء والبساتين ويقال إنها متيجة..." (بن قرية، 2007، ص 255)، هذا النهر تحدث عنه ابن حوقل قائلا: "...متيجة في مرج لهم ماء جاري عليه أرحية وشعبة من النهر تدخل الدور كثيرة البساتين وهياجة على اسم رستا قها وهو واسع كثيرة القموح..." (ابن حوقل، د ت، ص 228).

وقد تحدث الحسن الوزان عن النهر القريب من جزائر بني مزغناي التي عدها من مدن متيجة وذكر أهميته في تزويد ساكنة المدينة بالماء الشروب واستعمالاته في مجالات أخرى منها سقي البساتين يقول الوزان: " معناها الجزر

سميت بذلك لأنها مجاورة لجزر ميورقة ومنورقة واليابسة، والمدينة قديمة من بناء قبيلة إفريقية تدعى مزغنة، وهي كبيرة تضم حوالي أربع آلاف كانون فيها دور جميلة وأسواق ويحيط بالجزائر عدد من البساتين والأراضي المغروسة بأشجار الفواكه قرب المدينة من الشرق نهر نصبت عليه طاحونات ويزود السكان بالماء للشرب والأغراض الأخرى، وفي الضواحي سهول جميلة جدا لا سيما سهل متيجة يبلغ طوله خمسة وأربعون ميل وعرضه ستة وثلاثون ميل حيث ينبت القمح الجيد بكثرة..." (الوزان، 1983، ص 37).

ومن مصادر مياه الموجودة بالإقليم أيضا العيون السائحة (بن قرية، 2007، ص 255).

هذا وبضيف الحسن الوزان مصدرا آخر من مصادر مياه الإقليم وهي جداول المياه الكثيرة، يقول الحسن الوزان: "مدينة بناها الأفارقة على تخوم نوميديا على بعد نحو ثمانون ميلا من البحر المتوسط تقع في سهل خصيب جدا تحيط بها جداول ماء كثيرة وبساتين..." (الوزان، 1983، ج 02، ص 41).

وفي موضع آخر نجده يذكر نهر الشفة ومنبعه الذي يجري بمتيجة فيقول: "وهو نهر ليس بالطويل ينبع من الأطلس ويسيل في سهل يدعى متيجة مجاور لمدينة الجزائر ثم يصب في البحر المتوسط قرب مدينة عتيقة تدعى تمندفوست" (بن قرية، 2007، ص 251)، لكن في إطار الكلام عن نهر الشفة نجد أحمد توفيق المدني في كتاب الجزائر يقول "واد الشفة ينزل من جبال موزايا (بن قرية، 2007، ص 266) ويخترق مضيق من أبرع ما تراه العيون ويتصل بوادي سيدي الكبير ثم ينصب في وادي الجر قرب القليعة ويتكون من ذلك وغيره وادي مزفران في البحر شرقي القليعة غرب مدينة الجزائر، أما النهر الذي لا يبعد عن أطلال المستعمرة الرومانية المعروفة عند البربر بتمندفوست فهو وادي حمير في خليج الجزائر في رأس ماتيفو" (المدني، 1931، ص 171).

يذكر أحمد توفيق المدني في كتاب الجزائر وادي الحراش ولا ندري إن كان هذا الوادي موجود وبنفس التسمية خلال العصر الوسيط أم لا، لكن يذكر في موضع آخر أن المنطقة كانت تسمى سابقا برج القنطرة و برج آغا، هذا الوادي يتكون في جبل البليدة ويخترق سهول متيجة وينصب على بعد ثمانية كيلومتر من مدينة الجزائر (المدني، 1931، ص 171).

ت- مصادر المياه بمدينة المسيلة:

توفرت مدينة المسيلة خلال العصر الوسيط بشبكة هيدروغرافية هائلة ساهمت في وفرة وتنوع المحاصيل الزراعية فتشير النصوص في مقدمتها ما ورد عند أبو عبيد البكري أن المدينة أقيمت على نهر عظيم سمي بنهر سهر: "تخرج من القلعة إلى مدينة المسيلة وهي مدينة جلييلة على نهر يسمى نهر سهر..." (البكري، د ت، ص 59)، نهر سهر هذا مصدره العيون المنبعثة من داخل مدينة غدير واروا وهي مدينة كبيرة أولية بين جبال" (البكري، د ت، ص 59).

وفي موضع آخر من كتابه السابق – المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب يذكر البكري جداول المياه التي كانت تحيط بالمدينة خصصت للسقاية : " وهي مدينة في بساط من الأرض عليها سوران بينهما جدول ماء جار يستدير بالمدينة وله منافذ تسقى منها عند الحاجة..." (البكري، د ت، ص 59) ، ويضيف على كلامه هذا أن الجداول المحيطة بالمدينة كانت مياهها عذبة..." (البكري، د ت، ص 59).

من خلال هذا النص نفهم أن تلك الجداول المحيطة بالمدينة استعملتها ساكنة المدينة في التزود بالماء الشروب وذلك ما عبرت عنه كلمة "عذب".

أما مؤرخنا أحمد توفيق المدني فقد أشار إلى مصادر أخرى للمياه بمدينة المسيلة حصرها في قنوات المياه، ويضيف على ذلك أن المدينة يجري بجانبها وادي القصب (المدني، 1931، ص 238).

ما ذكره أحمد توفيق المدني حول مصادر المياه بالمدينة مغاير تماما لما ورد عند رحالة وجغرافي العصور الوسطى التي ذكرت وادي سهر والجداول، وبذلك لا نستبعد أن المصادر هي نفسها لكن تغيرت التسمية من وادي سهر إلى وادي القصب، ومن الجداول إلى القنوات.

2- أثر المياه في الإنتاج الزراعي:

إن الشبكة المائية التي توفر عليها المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط كان لها أثر في وفرة المنتج الزراعي وتنوعه، فتشير المصادر أن مدينة مليانة قد تنوعت بها المحاصيل الزراعية، ذلك لا نستغربه خاصة وأن غالبية سكانها فلاحين (الوزان، 1983، ص 34-35) فكثرت بها المزارع الخصبة (بن قرية، 2007، ص 217)، ذات الأشجار (البكري، د ت، ص 61)، وجنات اعتمدت على نهر الشلف في السقاية.

هذه الوضعية انعكست إيجابا على الزراعة فكثرت المنتجات وكان المردود وفيرا، فسهلها الكبير عرف بإنتاجه الفلاحي الغزير خاصة أشجار الجوز، الذي كان لا يباع ولا يشتري ولا يقتطف حتى (البكري، د ت، ص 61)، وهذا يدل على كثرته، كما زرع بها التين والحبوب بمختلف أنواعها (حساني، 2007، ص 122-123).

إن وفرة الإنتاج الزراعي وتنوعه بمدينة مليانة ساهم في بروز نشاطات صناعية خاصة الصناعة الحرفية في مقدمتها صناعة النسيج والخراطة، وصناعة الأواني الخشبية، فالزراعة وفرت المادة الأولية لهذه الصناعات والمتمثلة في الغابات الكثيفة المحيطة بالمدينة، يقول الحسن الوزان: "... يكاد يكون سكانها كلهم صنعا، نساجين أو خراطين، ويصنع هؤلاء أواني من خشب..." (الوزان، 1983، ص 34-35).

وأما متيجة فقد توفرت على بساتين فسيحة ومزارع على سهلها الخصيب، تلك المزارع أنتجت مادة الكتان الذي كان يحمل خارج الإقليم ، يقول ياقوت الحموي: " متيجة بلد في أواخر إفريقية من أعمال بني حماد... وهي مدينة على نهر كبير عليه الأرحاء والبساتين ويقال إنها متيجة ولها مزارع ومسارح وهي أكثر تلك البلاد كتانا ومنها يحمل ... (بن قرية، 2007، ص 255).

إضافة إلى الكتان أنتج إقليم متيجة مادة القمح بكثافة، يقول ابن حوقل: " متيجة في مرج لهم ماء جاري عليه أرحية وشعبة من النهر تدخل الدور كثيرة البساتين وهياجة على اسم رستا قها وهو واسع كثيرة القمح" (ابن حوقل، د ت، ص 228)، إنتاج مادة القمح في الإقليم أكدته الجغرافي ليون الإفريقي بقوله: "... سهل متيجة يبلغ طوله خمسة وأربعون ميل وعرضه ستة وثلاثون ميل حيث ينبت القمح الجيد بكثرة ... (الوزان، 1983، ص 37/ بن قرية، 2007، ص 255-256) .

ولما تحدث ليون الإفريقي عن مدينة جزائر بني مزغناي التي أدمجها ضمن إقليم متيجة قال كانت تنتج الفواكه بكثرة، يتضح ذلك عند قوله: "...ويحيط بالجزائر عدد من البساتين والأراضي المغروسة بأشجار الفواكه قرب المدينة من الشرق..." (الوزان، 1983، ص 37/ بن قرية، 2007، ص 255-256) .

أما مدينة المسيلة فقد ساهمت الشبكة المائية في وفرة إنتاجها الزراعي خاصة مادة القطن الذي خصصت له بساتين فسيحة خصبة يقول البكري: "...وحولها بساتين كثيرة ويجود عندهم القطن..." (البكري، د ت، ص 59).

ولأن غالبية سكانها فلاحين أنتجت المدينة مادة الشعير بكثرة، هذه المادة كثيرا ما سلبها الأعراب منهم وملك بجاية الذي فرض عليهم الضرائب، يقول الحسن الوزان لما دخل المدينة: "... جيرانهم الأعراب الذين يسلبونهم مداخيلهم وملك بجاية الذي أثقل كاهلهم بالضرائب وقد اندهشت بالفقر السائد بمسيلة عند مروري بها، فلم أجد الشعير لفرسي ولليلة واحدة إلا بمشقة، ولو أقمت بها ليلة أخرى لما تمكنت من الحصول على ذلك لكثرة البؤس والفاقة السائدين في المدينة" (الوزان، 1983، ص 52).

إن فساحة بساتين مدينة المسيلة أدت بساكنتها للاهتمام بالرعي الذي نتج عنه كثرة اللحوم رخيصة الثمن (البكري، د ت، ص 59).

إن النشاط الاقتصادي بالمسيلة لم يقتصر فقط على الزراعة بل ازدهرت بها الصناعة فأغلب ساكنتها كانوا صناع كما قال الحسن الوزان: "مسيلة مدينة عتيقة...السكان كلهم صناع .." (الوزان، 1983، ج 02، ص 52) ، انتشرت بها كثير من الصناعات خاصة الصناعة اليدوية في صورة حرفة تطريز بأسلاك الذهب والحريز على الجلد (المدني، 1931، ص 238) .

3- أثر الزراعة والصناعة في رواج التجارة:

وفرة المنتج الزراعي وكثافته أدى إلى بروز صناعات حرفية في مقدمتها الصناعة النسيجية والصناعة الجلدية بفضل المادة الخام التي وفرتها الزراعة لهذا النوع من الصنائع "القطن، الكتان، الخشب، الجلد" نتج عن ذلك رواج التجارة سواء الداخلية أو الخارجية منها.

إذ تشير النصوص أن ازدهار النشاط الزراعي والصناعي بمدينة مليانة انعكس إيجابا على التجارة، فوجد بالمدينة سوق عرضت فيها مختلف المنتجات، وفد إليه سكان البلدات المجاورة لبيع مختلف منتجاتهم أو اقتناء المنتجات المحلية لمليانة، عرف هذا السوق باسم "سوق جامعة" (الحميري، 1984، ص 547)، الذي عقد يوميا لكثرة الوافدين عليه (حساني، 2007، ص 129)، وكثرة الوافدين على سوقها وزيادة النشاط التجاري، أدى إلى تأسيس أسواق بالمدن المجاورة التي ذكرتها لنا المصادر الجغرافية، كسوق ريغة الذي كان يعقد كل جمعة (الحميري، 1984، ص 280)، وسوق كران (بن قربة، 2007، ص 217/ ابن حوقل، د ت، ص 90)، وأسواق حصن كزماية (الإدرسي، 1832، ص 85)، وسوق كرام على نهر شلف (البكري، د ت، ص 61).

إن ازدهار التجارة بالمدينة انعكس إيجابا على حياة السكان – الرفاهية-، حيث تفننوا في تزيين وتشيد منازلهم، فدورهم كانت متقنة الصنع تضمنت سقايات جميلة.. (الوزان، 1983، ج 02، ص 35)، وبني في المدينة جامع متقن الصنع مليح عجيب يدعوا الشوق من رآه (العبدري، 2007، ص 48)، كما ذكر ذلك العبدري في رحلته .

أما مدينة المسيلة فهي الأخرى راجت بها التجارة إذ أسست بها عدة أسواق بهدف بيع الفائض من الإنتاج وتبادل السلع مع ساكنة المناطق المجاورة، يقول أبي عبيد البكري: "... للمدينة أسواق وحمامات ... " (البكري، د ت، ص 59).

للاشارة تعذر علي الحصول علة نصوص تخص واقع التجارة في إقليم متيجة خلال العصر الوسيط .

4- خاتمة:

خلصت الورقة البحثية إلى جملة من النتائج نلخصها فيما يلي:

- موضوع المياه وتأثيراته على الحياة الاقتصادية من المواضيع الجديرة بالدراسة والبحث .
- كتب الجغرافيا وكتب أدب الرحلة من المصادر الأولية للبحث في مثل هكذا موضوع.
- تنوعت الشبكة المائية في المغرب الأوسط .
- تميز الإنتاج الزراعي بالمغرب الأوسط بالكثافة والتنوع إضافة إلى الجودة .

-وقّرت الزراعة المادة الخام للنشاط الصناعي خاصة الكتان، القطن، الخشب .

- كان للسهول الواسعة والخصبة دورا في تنوع المنتج الزراعي .

5- توثيق المراجع:

1. ابن حوقل أبي القاسم، كتاب المسالك والممالك، طبع بمطبع لندن المحروسة. د. ت .
2. أبي عبيد البكري توفي (487هـ/1094م)، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دون تاريخ .
3. أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر تاريخ الجزائر إلى يومنا هذا وجغرافيتها الطبيعية والسياسية وعناصر سكانها ومدنها ونظائرها وقوانينها ومجالسها وحالتها الاقتصادية والعلمية والاجتماعية، طباعة ونشر المطبعة العربية، الجزائر، 1931م.
4. الإدريسي الشريف، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة بريل، مدينة ليدن، 1832 م .
5. الحسن الوزان بن محمد الفاسي المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقيا، ج 02، ترجمه عن الفرنسية، محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، 1983 م .
6. الحميري محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار معجم جغرافي مع فهرس شاملة، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، 1984 م .
7. صالح بن قرية وآخرون، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007 م .
8. العبدري محمد البلسني ت (720هـ/1320م)، الرحلة المغربية، تقديم سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، 2007م .
9. مختار حساني، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، مدن الوسط، ج 01، دار المكية الجزائر 2007م .
10. ياقوت الحموي الإمام شهاب الدين أبي عبد الله الرومي البغدادي، معجم البلدان، المجلد الخامس، دار صادر بيروت، 1977 .